الفصل الثامن

بعد مدّة وجيزة من التقرير الذي بثّته الإذاعة، عادت والدتي إلى البيت يوماً وهي تحمل كمية قليلة من الدقيق لصنع العشاء، حيث لم نحصل تلك الليلة إلّا على كمية ضئيلة من الطعام. وحين جلست على الأرض لتشاركنا العشاء، نظرت إلى الممرّ، فإذا بكهامبا يقف عند الباب المفتوح. كان في حال يُرثى لها؛ إذ كان رأسه متدليّاً، وعيناه مرتخيتين، وأضلاعه بارزة من جلده كالشفرات. حتى إنّ المشي عبر الباحة كان كفيلاً بإرهاقه. لقد كان يموت جوعاً.

كانت جلد الماعز في عيد الميلاد آخر وجبة كبيرة تناولها. وقد منحه ذلك الطعام بعض القوة، حتى إنّه زاد من وزنه. لكنّه لم يحظَ بغيره منذ ذلك اليوم. وقد أحصيت عدد المرّات التي أطعمته فيها (حفنات من السيما فقط) خلال الأسبوعين المنصرمين، فكانت خمساً فقط. لم أكن في حاجة إلى تفكير عميق. وكان ذلك الرقم هو كلّ ما استطعت التفكير فيه. ثمّ شعرت كأنّ مطرقة تنهال على معدتي ضرباً لدى مشاهدته واقفاً هناك. لم يكن لدي تلك الليلة أيّ شيء يمكن أن أُعطيه إيّاه، فقلت: **معذرة يا صديقي. لا أستطيع مشاركتك في طعامي.**

لم يستغرق تناول الطعام وقتاً طويلاً. وحالما انتهى الطعام وغاب عن الأنظار، نهضت ومشيت عبر الممر، ثمّ عدت إلى الغرفة متخطّياً الكلب، ثمّ أغلقت الباب، وخلدت إلى النوم.

أيقظني الجوع في صباح اليوم القادم، ولم أكن أعرف أنّ معدتي سيطرت على جسدي كلّه في أثناء الليل، وملأت كلّ طرف وشقّ فيه ليصبح كبالون كبير. أخيراً، حدث الانفجار في نقطة ما من الصباح الباكر لتكشف عن فراغها؛ إذ كانت مليئة بالهواء فحسب. وفي خضم ذلك الفراغ، لم يبقَ سوى الألم. أخذت أنفاساً عميقة في محاولة لملء الفراغ مرّة أخرى، لكنّ ذلك لم يُجدِ نفعاً. كنت مفلطحاً كعجلة داخلية، وقد تسبَّب لي ذلك في ألم كبير. استلقيت بعدها في السرير، مُصغِياً إلى وقع حبّات المطر وهي تضرب السقف بثبات عبر القش والغطاء البلاستيكي تحته، ثمّ شعرت بجسدي يذوي هناك في العتمة.

فقلت لنفسي: **يجب أن تأكل**.

بقيت مستلقياً إلى أن أرسلت الشمس شعاعاً رماديّاً عبر النافذة الموصَدة. وحالما غاب صوت المطر، استجمعت قواي لأنهض. فنهضت من السرير، وارتديت ثيابي، ثمّ تناولت بعض الحاجيات وخرجت. وفي هذه الأثناء، توقّفْتُ عند باب المطبخ، وأخذْتُ أختلس النظر. كان كهامبا مستلقياً عند حفرة النار التي فقدت حرارتها منذ زمن. لم أستطع تمييز أكان يتنفس أم لا؟ ثمّ سألت نفسي: هل شاهدنا الحلم نفسه؟ وما هي لحظات حتى صرخت، قائلاً: **لنذهب إلى الصيد يا كهامبا**.

سرت كلماتي كشحنة تيار في جسده؛ إذ رفع رأسه، وضرب ذيله على الأرض. وكان قد مرّ عام مُذْ قلت تلك الكلمات آخر مرّة. لقد كافح ليتغلَّب على ضعفه ويقف على أقدامه التي ترتجف من جرّاء التهاب المفاصل، لكنّه هزّ ذيله بحماس. لقد كان مستعدّاً.

قلت له: **لنحضر بعض الطعام**.

لم يكن لديَّ أيّ ذرة أو غاغا لأستخدمها طُعماً. لذا، أخذت حفنة رماد من نار والدتي ووضعتها في كيس سكّر. ثمّ سرت أنا والكلب صوب مرتفعات دوا التي بدت كأنّها مكسوّة بصخب أبدي؛ إذ لم يتوقّف المطر عن الهطل حتى اللحظة. أخذت منّا الطريق ضعف الوقت بسبب بطء حركة كهامبا الذي كان يعرج خلفي ببطء. وكنت قد أبقيت على مسافة خطوتين بيني وبينه، وأخذت أُصفّر مراراً في محاولة لرفع معنوياتي. كانت الذرة تنمو خضراء طويلة

في الحقول، فعرفت أنّ المحنة ستنتهي عن قريب، أو أكثر قليلاً. ثمّ نظرت إلى السماء؛ بحثاً عن الطيور، فلم أجد شيئاً.

بعد ذلك، ثبَّت المطّاط على الأعمدة في موقع الشَّرك ومددته إلى الخلف، وهيّأت الزناد، ثمّ نثرت الرماد في منطقة القتل. وفي واقع الأمر، فقد بدا المنظر مثيراً للشفقة.

قلت: **آمل أن يُجدي هذا نفعاً.**

قد أتمكّن من النوم الليلة إن تمكّنّا من اصطياد ثلاثة طيور. ولربّما تحسَّن كهامبا وتمالك نفسه لشهر آخر. أمسكت الحبل وجررته خلف شجرة ثومبوزي مسافة عشرين قدماً. وفجأة، انهار كهامبا مُرتطِماً بالأرض، ثمّ غَطّ في النوم تقريباً. أمّا أنا فتمدّدت على بطني مُنتظِراً.

وبعد نحو ربع ساعة، ظهر سرب صغير من خمسة طيور، ثمّ هبط بجانب الشَّرك. وحينئذٍ، رفع كهامبا رأسه كأنّه يشاهد حلماً. وحال أخذت الطيور تقترب من منطقة القتل، بدأت أُسرح بمخيّلتي:

رأيت – بالحركة البطيئة– المطّاط وهو يضرب الطيور بالجدار مُحطِّماً إيّاها في الحال. ثمّ رأيت نفسي وأنا أنزع ريشها، فرؤوسها، ثمّ تناولت سكينتي عن خصري وأحدثت فيها جرحاً تحت الصدر، ثمّ نزعت أحشاءها ورميتها في الهواء فالتقطها كهامبا بفكّيه، فضحكت وأثنيت عليه، لكنّني لم أعرف ماذا قلت. بعد ذلك، أخذت أُنظِّف الطيور بالماء، ثمّ رششت الملح على اللحم الدافئ وفركته جيداً كي يتشرّبه اللحم. ثمّ أشعلت ناراً صغيرة خلف الشجرة، وسرعان ما استحالت جمراً مشِعّاً. حينئذٍ، فصلت أجزاءها الخلفية، ثمّ وضعت الصدور على الجمر مباشرة، وبدأت أسمع صوت اللحم وهو ينضج. وما هي إلّا لحظات حتى انتشرت رائحة اللحم المشوي من حولي، كأنّها أحاطت الكون بأسره. وحين داعبت الرائحة دماغي، أخذت أُقلِّب اللحم، وبدأ لعابي يسيل.

صحوت من خيالاتي بفعل دقات قلبي المتسارعة، لأرى الطيور توشك أن تثب نحو الشَّرك. في حين جلس كهامبا ينظر متصلِّباً وتائهاً في أحلام اليقظة اللذيذة. فأمسكت الحبل مُرتجِفاً. ولكن، ما إن دخلت الطيور منطقة القتل حتى أدركت أنّ الطُّعم ليس إلّا

مجرّد رماد لتطير بعدها بسرعة. حينئذٍ، تنهّدت وقد غمرني شعور بالهزيمة، فأفلت الحبل، واستسلمت للواقع المرير، ثمّ أسترسلت في البكاء.

فــي تلك الليلة، طوى كهامبا نفسه، وغَـطّ في نوم عميق مخيف. كانت رحلة الصيد قد استنزفت طاقته كلّها تقريباً. وكنت قد وفَّرت نصف حفنة من السيما وبعض أوراق اليقطين من العشاء، ثمّ خرجت إلى حيث كان مستلقياً، وصرخت: **العشاء يا كامبا!**.

كانــت تلك كلمــة أُخرى يعرفها. ففتح عينيه، وأخذ يضرب ذيله. ثمّ قذفت الطعام فوق رأســه، لكنّه لم يبذل جهداً لالتقاطه، فسقطت السيمــا وأوراق اليقطين على الأرض مُحدِثة ضجّة. استغرق منه استيعاب الأمر وقتاً، ثمّ نهض وبدأ يأكل.

بعــد ذلك بيوميــن، أطعمته مرّة أخــرى، وكانت الوجبة قليلاً مــن أوراق اليقطين التي وضعتها في صحنه. وحين رآني جاء يعرج. ولكن، ما إن تناولها حتى تقيّأ على الفور. حينئذٍ، أدركت أنّ النهاية قد اقتربت. فقلت له متوسّلاً: **اصمد شهراً واحداً فقط. سنأكل كما يحلو لنا بعد شهر.**

تقيّأ طعامه في الليلة اللاحقة أيضاً، ولم يُجْدِ ما فعلته أيّ نفع يُذكَر.

وفي اليوم القادم، عرّج تشاريتي وميزيك على بيتي في طريقهما إلى المركز التجاري. كانت أول مرّة أرى فيها ميزيك مُذْ أكلنا الطيور في المنتدى. خبرته حينها شابّاً سميناً. أمّا الآن فلم يبقَ منه إلّا بقية إنسان متهالك، وكانت عظام وجهه ناتئة بوضوح.

وحيــن رآى كهامبا سيطر الجنون على صوته، فقــال وهو واقف عند رأس الكلب: **انظر إلى هذا الشيء، إنّ منظره يثير الشفقة.**

كان كهامبا نصف نائم، جلده وعظامه يغطّيها الذباب، لم يعد يأبه حتى بذلك.

قال ميزيك: **لا أُطيق النظر إليه.**

قلــت لنفســي: **إذن لا تنظــر**، ثمّ حاولت تغييــر الموضوع. ما شأنه بكلبــي؟ لقد حاولت تغيير الموضوع حقّاً.

سألت: **ماذا ستفعلان اليوم؟**

أجـاب تشاريتي: **سنتوجّه إلـى المركز التجـاري كالمعتاد؛ بحثاً عـن الغانيو، لكنّني متشائم حيال نجاح هذا الأمر.**

بقـي ميزيـك صامتاً بينما تجاذبـت أطراف الحديث مع تشاريتـي. كان لا يزال يحدِّق بكهامبا بعينين لا تطرفان.

قال ميزيك: **لماذا لا تنهي معاناة هذا الشيء. خذه خلف البيت، وبصخرة كبيرة.**

تظاهرت أنّني لا أسمعه.

قـال تشاريتـي: **إنّـه محـق يا ويليـام؛ يجـب أن تفعـل شيئاً. خـذه إلـى الدامبو حيث مستوى الماء مرتفع. فهو لا يملك طاقة للسباحة.**

قلت: **مهلاً، ما هذا الذي تقولانه؟**

قـال ميزيك: **نقول:إنّه آن الأوان أن تصبح رجـلاً. لقد حان موعد قتل هذا الحيوان البائس.**

وددت لـو هشّمت وجهه. **صاحبيّ، بـالله عليكما كُفّا عن مثل هذا القول، فكهامبا على ما يرام،** قلتها وصوتي يزداد ضعفاً.

قـال ميزيك: **اسمع، إذا لم تصبح رجلاً وتفعلهـا بنفسك، فسنفعلها نحن من أجلك. هذا الشيء يثير اشمئزازي.**

قـال تشاريتي بصـوت خفيض: **ذلك عيـن الصواب. لن يتعيّـن عليك فعـل أيّ شيء. سنمرّ غداً لأخذه. لن يشعر بأيّ شيء.**

حاولـت الاعتراض على ما سمعته، لكنّ الكلمات لم تسعفني، وكانا لي بالمرصاد. وفي هذه الأثناء، رمقني ميزيك بنظرة مجنونة، قائلاً: **لم يعد القرار بيدك بعد الآن.**

obeikandl.com

عندما غادر ميزيك وتشاريتي، شعرت بدوار وضعف، وكانت الأرض تمور تحت قدميّ. وقفت هناك أُراقب كهامبا وهو يغطّ في نومه، ثمّ تدبرت أمر الجلوس إلى جانبه. كان الذباب كثيفاً عليه؛ يدور ويحط مرّة تلو أخرى. فتح عينيه أخيراً بعد نصف ساعة، وضبطني أنظر إليه، فضرب ذيله على الأرض ببطء. ذكّرتني طريقة نظره إليَّ بأيام الصيد، وبالكيفية التي كنّا نتواصل بها مع بعضنا من دون حاجة إلى الكلام.

كيف لي أن أحمي كلبي في حال عاد ميزيك وتشاريتي؟ لا يمكنني أن أدعهما يأخذانه. لذا، فكّرت في طرائق عدّة لفعل ذلك إلى أن حلّ الظلام على المكان، عندئذٍ، عرفت الإجابة. لقد كانا على حق؛ فكهامبا كان يعاني إلى حدّ البؤس. ولكن، جانبهما الصواب بخصوصي.

في صباح اليوم اللاحق، خرجت إلى فناء البيت أُراقب كهامبا في نومه، فظهر تشاريتي في الباحة. بدأ قلبي يخفق بشدّة. نظر إلى كلبي، ثمّ أخذ يحكّ ذقنه. لكنّني وقفت قبل أن يقول أيّ شيء.

قلت: **سآخذه أنا.**

قال: **ماذا؟**

قلت: **سآخذه أنا إلى الغابة.**

هزّ كتفيه، قائلاً: **يمكنك إنجاز المهمة بسرعة باستخدام صخرة.**

قلت: **هذا ما أريده.**

أومأ تشاريتي برأسه، ثمّ قال: **لقد اتخذت القرار المناسب. اليوم سنقوم بهذا الأمر معاً.**

قلت: **اليوم.**

عندما عاد تشاريتي في الظهيرة، مشينا إلى المنطقة المظللة خارج غرفتي. كان كهامبا لا يزال مستلقياً هناك من دون حراك. تظاهرت حينها أنّني شخص آخر، وهذا ما كان فعلاً.

قلت: **لنذهب إلى الصيد يا كهامبا.**

رفع رأسه.

قلت: **فلنذهب.**

تعثّر بأقدامه ونفض نفسه لطرد الذباب عن ظهره، وعرّج نحوي. استغرقنا وقتاً طويلاً للخـروج مـن محيط البيت. ثمّ تقهقـرت قليلاً أمامه لكيلا يغيب عن ناظـري، قائلاً: **هيا يا فتى، يمكنك فعل ذلك.**

مشينا على الطريق المنحـدرة متجهين إلى المرتفعات، حيث كانت الشمس منخفضة فـي الجهة الغربية، مُلوِّنة التلال بلون برتقالي مشع. وكان الهواء دافئاً وجافّاً ما جعله مثاليّاً للصيد. وما إن دخلنا أجمة اليوكاليبتوس (مكان يعرفه كهامبا جيداً) التي يصل طول نباتها إلـى أذقاننا، حتى استدار تشاريتي عنـد نقطة ما، قائلاً: **من هنـا.** حينئذٍ،شعرت بأنّ قلبي نزل إلى معدتي.

تبعنا كهامبا، الذي كان يصارع ليتمكّن من السير بين ثنايا العشب والأغصان الطويلة.

قلت: **هيّا يا كهامبا.**

كنت أشعر بالدموع حارّة في حلقي، لكنّني ابتلعتها. وحين لاحظ تشاريتي ذلك، استدار نحوي، قائلاً: **لا تنزعج، إنّه مجرّد كلب.**

قلت: **نعم، إنّه مجرّد كلب.**

بعـد دقائق معـدودات، توقّفنا فـي أيكة كثيفة محاطـة بعشب يطاول الصـدور. كانت الجبال ظاهرة في الأفق من بين أشجار اليوكاليبتوس.

قال تشاريتي: **هذا مكان مناسب. لن يمرّ أحد من هنا.**

نظرت حولي، وكنت ما أزال قادراً على رؤية بيتي، ثمّ قلت: **هذا ليس بعيداً كفاية.**

قال: **لن يستطيع الكلب السير أكثر من ذلك.**

كان كهامبا قد ارتمى تحت شجرة ثومبوزي وهو يلهث بصعوبة.

بـدأ تشاريتـي – مـن دون أن أتفوّه بشـيء – بسلخ اللحـاء عن بعض أشجـار السانغا لصناعـة حبل طويل، ثـمّ طواه على نفسه ليجعله أكثر متانة. فـأدرت ظهري، وأخذت أُحدِّق بالأشجار.

هدأت يدا تشاريتي في مرحلة ما، لكنّني لم ألتفت.

قلت: **اربطه إلى الشجرة.**

لفّ تشاريتي أحد طرفي الحبل حول جذع شجرة ثومبوزي، ثمّ ربط الطرف الآخر بقدم كهامبا الأمامية.

وحيـن استجمعـت قوتـي وتمالكت نفسـي، استدرت لأجـد كلبي مستلقيـاً على العشب الطويل. كانت أضلاعه ناتئة من جنبيه، وكان يلهث بوهن. بعد ذلك، استدار تشاريتي وغادر من دون أن يقول شيئاً. وحين تبعته، رفع كهامبا رأسه وأخذ ينوح. كان جسده أضعف من أن يُصـدِر صوتاً حقيقيّاً، فقـط مجرّد نحيب ينمّ عن خوف نابع مـن الأعماق. كان يعرف أنّني سأتركـه. وبعد السير خطوات عدّة، ارتكبت خطأً باستدارتي نحوه؛ إذ كانت عيناه تواصلان النظر إليَّ، ثمّ سرعان ما أنزل رأسه إلى الأسفل.

همست لنفسي: **لقد ارتكبت أمراً فظيعاً**، ثمّ أخذت أَغُذّ الخطى.

قال تشاريتي: **لقد كان عجوزاً. كان سيموت على أيّ حال.**

ردّدت في نفسي: **لقد ارتكبت أمراً فظيعاً.**

ومـا إن وصلنـا إلى محيط البيت حتـى توجّه تشاريتـي إلى المنتدى، حيـن مشيت أنا نحـو غرفتي. وفي هذه الأثنـاء، وقع بصري على صحن كهامبا المُلقـى بجانب قنّ الدجاج. فركضت، والتقطته، ثمّ ضربته بالأرض مُحطِّماً إيّاه إلى قطع عدّة.

قلت لنفسي مُجدَّداً: إنّه مجرّد كلب.

بقيـت مستيقظاً في أثنـاء تلك الليلة لعلمي أنّ كهامبا ما يـزال أسفل التل القريب. قد يكون قادراً على سماعي إن ناديت عليه بصوت عالٍ في الظلام.

تجنَّبـت معظم النـاس في اليوم اللاحـق، وحاولت البقاء في الحقول. لكن، ما إن عدت إلى البيت حتى وجدت عمّي سقراط يخرج من هناك بعد زيارة والدي.

قال: **أين كهامبا؟ لم أره في أيّ مكان.**

قلت: **وأنا لم أشاهده أيضاً، لعلّه يبحث عن طعام في مكان ما.**

قال: **أتمنّى ألّا تكون الكلاب البرية قد هاجمته. فإن فعلت فسوف نشتم رائحة جثته ولا شكّ.**

شعـرت بالغثيان طـوال اليوم، وحاولت تلـك الليلة تجنّب التفكير فـي كهامبا، وإعمال دماغـي في كلّ شيء ما عـداه. لم يكن الأمر صعباً؛ فقد كنت جائعـاً لدرجة أنّني لم أستطع التركيز على شيء واحد وقتاً طويلاً على أيّ حال.

في صباح الغد، عرّج عليَّ تشاريتي، فوجدني جالساً في غرفتي، فقال: **لنذهب ونتعرّف ما حلّ بكهامبا.** لقد كانت معنوياته مرتفعة.

قلت: **ماذا تقصد؟**

أجاب: **نريد أن نعرف أمات أم لا؟**

لم أقل شيئاً.

قـال: **سنأخـذ معنـا بعض المعـاول ليظـن الناس أنّنـا ذاهبـان إلى الحقـول. يمكننا استخدامها في دفنه أيضاً.**

انطلقنـا نحـو المرتفعات حامليـن المعاول. كنـت مضطرباً، ولم أرغـب في الحديث. انحرفنـا عـن الطريق ودخلنا الدغـل. كان العشب لا يـزال رطباً من النـدى، فأصاب البلل بنطالي. وبعد دقائق عدّة، رأيت كتلة بيضاء على الأرض.

سأل تشاريتي: **أهو ميت؟**

اقتربت أكثر؛ لأتمكّـن من مشاهدته بصورة أفضل، فوجدته مستلقياً بالوضعية نفسها التـي تركته عليهـا. كان رأسه متدليـاً ومُلقًى على براثنـه الأمامية، وعينـاه مفتوحتان على اتساعهمـا. شهقـت مُتوقِّعاً أن يتحرّك. ولكـن، عندما اقتربت أكثر، رأيـت لسانه يتدلّى من فمه. لقد كان جافّاً كالورق. وكان هنالك رتل من النمل يتحرّك في فمه جيئة وذهاباً.

قلت: **كهامبا ميت.**

لـم يكـن الحبل قد تحرّك من مكانه. لم تكن هنالك أيّ مقاومة. وفجأة، عَنَّت لي فكرة مخيفة؛ لقد فقد كهامبا الإرادة في الحياة عندما رآني أغادر المكان، ذلك يعني أنّني قتلته.

بينما فكّ تشاريتي الحبل عن الشجرة، أخذت أحفر حفرة بالمعول وتفكيري خاوٍ أسود. ثـمّ سَـرت في جسدي طاقة كبيرة من ذلك المكان البارد المظلم. لقد كان أكثر جهده أبذله منذ أشهر.

كان الحبـل لا يـزال مربوطاً بسـاق كهامبا. لذا، قمـت بشدّه في حين أزالـه تشاريتي بالمعول. وبقليل من الجهد، تمكّنّا من إسقاط كهامبا في الحفرة.

قلت: **الوداع يا كهامبا، لقد كنت صديقاً وفيّاً.**

ملأنـا الحفرة بالتـراب من دون أن نتـرك أيّ علامة، حتى إنّنا أخفينـا الأثر بالعشب والأغصـان. وحين وصلـت البيت أنا وتشاريتي، لم نخبر أيّ أحد بما فعلناه، وبقي الأمر سرّاً طوال سنوات، حتى الآن.

بعد دفن كلبي بأسبوعين، اجتاحت الكوليرا المنطقة.

كان الوباء قد بدأ بالانتشار في شهر تشرين الثاني المنصرم بالمنطقة الجنوبية قرب موانزا؛ إذ ذهب أحد مُزارِعي المنطقة لحضور جنازة في كاسيا التي تبعد عشرين كيلومتراً عـن ويمبي، ثمّ عـاد جالباً معه المرض. لقد مات العشرات في تلـك القرية خلال أيام، كما أصيب المئات في مختلف أنحاء المنطقة.

تُعَـدّ الكوليرا طريقة مروّعة للموت؛ إذ تبـدأ بألم حادّ في المعدة، وغثيان، ووهن عام. يتبـع ذلـك إسهال شديد يكون فيه البـراز سائلاً، وعديم اللون، ومـن دون رائحة. وفي هذه الأثناء، يستنزف المرض الطاقة والحياة من الجسم، تاركاً صاحبه في حالة ضعف لا يقوى فيهـا حتى على الـكلام، ثمّ يتسبَّب في الوفاة بعـد مرور ست ساعات إذا لـم يُعطَ المريض العلاج اللازم.

تُعَدّ الكوليرا أيضاً رفيق شؤم لموسم المطر في مالاوي وبقية الدول الإفريقية؛ إذ تحتوي معظم القرى على حفر مراحيض بدائية تطفح أحياناً، مُلوِّثة الينابيع والآبار التي يشرب منها الناس. وينقل الذباب البكتيريا المسبِّبة للمرض بعد أن يحطّ في المراحيض، ثمّ يطير ليحطّ علـى الطعام. وقد أُصاب المرض أيضاً الأشخاص الذين كانوا يبحثون عن الطعام في أثناء تفشّي المجاعة. لقد أصابتهم الكوليرا وهم في الطريق، ثمّ حملوها معهم إلى الدغل. إضافة إلى هذا، نشر المطر والذباب والصراصير المرض بتلويث قشر الموز والدرنات والقشور التي التقطها الناس عن الطريق وأكلوها.

مـن جانبهـا، بذلت العيادة الموجودة فـي المركز التجاري جهوداً طيبـة لحمايتنا من الإصابة بالمرض، عن طريق توزيع الكلور مجّاناً لمعالجة مياه الشرب. وقد أحضرته والدتي إلى البيت ظهيرة أحد الأيام بزجاجة كوكا كولا، ثمّ أصبح طعم المياه كالمعدن بقية الشهر. كما عملنا – حسب تعليمات العيادة وتوصياتها – علينا تغطية حفرة المرحاض بقطعة معدنية مسطّحة موصولة بعصا مكنسة. ولكن، ما إن كنّا ندخل ونزيل الغطاء، حتى يطير الذباب من الحفرة كالطاعون الكبير الذي ذُكِر في الكتاب المقدّس، ويغطّي وجوهنا وأفواهنا ورؤوسنا. وبذا، أصبحت عملية هشّها وقضاء الحاجة في الوقت نفسه أمراً مرهقاً. وكان ظهور أيّ أثر للإسهال حول حفرة المرحاض يُنذِر بالخطر، ويفرض حالة الطوارئ في المنطقة المحيطة.

كان المصابـون بالكوليـرا يمـرّون من أمـام بيتنا يوميّـاً في طريقهـم؛ لتلقّي العلاج، وعيونهـم بيضـاء، وجلدهم مجعَّد بسبب الجفـاف. كنت أُراقبهم مـن وراء الأشجار إلى أن يقتربوا، ثمّ أركض باتجاه البيت. ولكن، ما أن يذهبوا حتى يتبعهم الجياع.

كان الأشخاص الذين يموتون بالكوليرا يُغمرون بالكلور، ثمّ يُدفنون في أثناء الليل في المقبرة القريبة من الكنيسة الكاثوليكية، ويتولّى هذه المهمة عادة الأطباء أنفسهم الذين حاولوا معالجة هؤلاء المصابين. وقد جرت العادة – في مثل هذه الأحوال – بتسريع العملية، بدفن جثتين في حفرة واحدة، ثمّ تغطيتها بسرعة. لم يكن أحد يعرف عدد الضحايا في ويمبي. وقد استمر الدفن بصورة يومية؛ سواء الجوع كان السبب، أم الكوليرا.

بالعودة إلى البيت، كانت حالة فقر الدم التي يعانيها جيفري تزداد سوءاً؛ إذ انتفخت قدماه على نحوٍ مروّع، وأخذتا تتحسَّسان من أيّ شيء، فبمجرّد لَمْسك إحداهما يترك إصبعك أثراً في جلده المنتفخ؛ كأنّ ساقيه مليئتان بالصلصال.

كنت ألكزه، سائلاً: **هل تحسّ بذلك؟**، فيجيب: **لا.**

كان يشعر عادة بالدوار، ويواجه صعوبة في المشي بستقامة. ففي ظهيرة أحد الأيام، اصطحبته خارجاً تحت أشعة الشمس، لكنّه توقّف قائلاً: **انتظر، لا يمكنني رؤية شيء.** وقفنا هناك حتى اعتادت عيناه تحمّل الضوء. يُذكَر أنّ والدته لم تُقدِّم له في الأشهر الماضية سوى أوراق اليقطين وقت العشاء. لقد كان ابن عمي يموت ببطء.

وفي المقابل، لم يكن بمقدور والدتي سوى أخذ نصف حصتنا اليومية من الدقيق، ووضعها في حوض، ثمّ التوجّه إلى بيت جيفري، قائلة:

لقد أتيت لأشارككم في هذا! الكمية ليست كبيرة، لكنّها تكفي لعمل عصيدة.

فتردّ والدة جيفري: **شكراً جزيلاً، لقد أنقذتِ حياتنا.**

فتعقب والدتي: **نحن نقاسمكم كلّ ما نملكه. لا يمكن أن نترك عائلتنا تتضوّر جوعاً.**

بعد ذلك بأيام عدّة، جاءت شقيقة والدي كريسي، وقالت: **لقد وقع الوالد مَغشياً عليه في الباحة، وهو لا يتناول سوى أوراق اليقطين. أرجو أن تصلّي لوالدنا يا أخي.**

في ظهيرة ذلك اليوم، أخذت والدتي نصف دقيقنا مرّة أخرى، وأعطته لجدّي.

وفي هذه الأثناء، كنّا نفقد الوزن جميعاً؛ إذ بدأت عظام صدري بالبروز، وأصبح الحبل الـذي كنـت أستخدمه حزاماً لا يفي بالغرض، فأخذت أشدّ قطعتي الحزام معاً، ثمّ أربطهما بعصا، مثل العصبة تقريباً، وكنت ألفّها ببساطة حين أُصبح أكثر نحافة. أمّا فمي فكان جافّاً باستمـرار. وأصبحت ذراعـاي نحيفتين كأعمدة اليوكاليبتوس، وكانتـا تؤلمانني باستمرار. وسرعان ما صرت أُواجه صعوبة في ضمّ يدي وفتحها.

وبينمـا كنت أزيل الأعشاب مـن الحقول في ظهيرة أحد الأيام، بـدأ قلبي يخفق بشدّة لدرجـة أنّني عجزت عـن التنفس، وكاد يُغمى عليَّ. قلـت لنفسي: **ما الذي يجـري لي؟**. ثمّ تملّكنـي شعور بالخوف، فانحنيت ببطء حتى لامست ركبتاي الأرض، وبقيت على تلك الحال مدّة طويلة حتى عاد قلبي إلى طبيعته، وتمكّنت من التنفس.

جلسـت في غرفتي في أثناء الليل وبجانبي القنديل، ثمّ أخذت أُحدِّق بالجدران بعينين ناعستيـن؛ كأنّني أُحلِّق في عالَم آخر. وفجأة، رأيـت حريشة (أُمّ أربع وأربعين) تزحف أعلى الجـدار، وقد خُيِّل إليَّ أنّها استغرقت ساعات عدّة وهـي تزحف هناك. ثمّ أمسكت بجناحي ذبابـة نـوار تطيـر قريباً جدّاً مـن اللهـب، وسألتها: **كيف بقيـتِ حيّـة حتى اللحظـة؟ ماذا تأكلين؟**. ثمّ أفلتّها وشاهدتها تقع على الأرض على نحو لولبي مثل طائرة ورقية معطوبة.

لم يكن بمقدور أيّ سحر إنقاذنا الآن. الجوع هو نوع قاسٍ من العلم.

آنداك، أصاب والدي وسواس بشأن وزنه؛ إذ كان جسده الضخم قد تقلّص كحبّة فاكهة تذبل تحت أشعة الشمس، وأخذت العظام الحادّة تبرز بعد اختفاء العضلات الضخمة.وبدت أسنانـه أكبـر من السابق، وتمكّنت مـن رؤية ندوبه. قال لي ذا يوم: إننـي أواجه صعوبة في الرؤية. فقد أثّر الجوع في بصري مثلما أثّر في بصر جيفري.

كان هاجس والدي يزداد كلّما أصبح أكثر نحافة، فتراوده رغبة عارمة في معرفة وزنه، فيعمـد إلـى ذلك باستخدام ميزان ذرة مُعلَّق بحبل في مخـزن التبغ. وقد شاهدته ذا صباح يقـوم بحركته المعهـودة تلك؛ إذ أمسك بالخطّاف، ووقف ككيـس ذرة أو حُزمة تبغ، مُحدِّقاً بالإبرة. تململ قليلاً، ثمّ قال: **مممم، خمسة كيلوغرامات، يا للهول!**.

جـاءت والدتـي ونظرت كالعادة، لكنّها أبت أن تزن نفسهـا. وقد مُنِع الأطفال من ذلك أيضـاً. قامـت والدتي بفعل ما تفعلـه النساء كافة في أوقات الجـوع؛ إذ ربطت المبانغو حول خصرهـا كالحـزام، وقالت إنّ هذا الأمر يُربِـك معدتها ويخدع قلبها، كـي لا يخفق بسرعة ويُصعِّـب من عملية تنفسها؛ إلّا أنّ ذلك لم يمنـع يديها من الارتجاف كلّما أرضعت شقيقتي الصغيرة في الصباح والظهيرة.

اعتادت والدتي ممارسة الألعاب الذهنية في الليل، وكثيراً ما كانت تقول لشقيقاتي:

إنّكنّ تفقدن الوزن بسبب تفكيركنّ المستمر في الطعام. ألا تعرفن أنّ ذلك يُرهِق أجسادكنّ، ويحرق مزيداً من الطاقة؟ إذا كان الجوع هو شغلكنّ الشاغل، فسوف تعانين أكثر.

فكانت كلّ منهنّ تبكي، قائلة: **لا أريد أن أُصاب بالانتفاخ يا أمي.**

فتـردّ والدتي: **إذن، يتعيّن عليكنّ التفكير في أمور إيجابية. أرجو أن تفعلن ذلك من أجلي.**

بعـد ذلك، تُعِدّ والدتـي السيما التي تجعلنـا نحلّق عالياً، ونشطح فـي تفكيرنا؛ فاللقم الثلاث لم تكن تترك أيّ انطباع أو أثر يُذكَر في أجسادنا.

كان والدي يعمد إلى مغادرة المكان عند تقديم الطعام، فنقول له:

ألن تأكل يا أبي؟

فيجيب: **أنا على ما يرام، كلوا أنتم يا أطفال.**

وبينمـا كان والـدي جالساً في الباحـة ذا صباح، أخذ يتمتم بـكلام غريب، قائلاً: **من الأمور الغامضة والرائعة المتعلقة بالجوع، أنّه يفتك بالرجال فقط.**

لقـد بدا غاضباً، لكنّه كان محقّـاً؛ فالرجال هُم الذين يخرجـون لتأمين لقمة العيش، ويستهلكـون طاقة ثمينـة لا يمكن تعويضها. وفي الوقت الذي كانـت فيه الكوليرا تضرب من

دون تمييز، بدا الجوع كأنّه يفتك بالرجال فقط. كان هنالك كثير من الرجال الذين يهجرون عائلاتهم ويتركونها تتدبّر أمرها بنفسها. كانوا يخبرون زوجاتهم صباحاً أنّهم ذاهبون للبحث عن الطعام، لكنّهم لا يعودون أبداً؛ إذ وقعوا ضحية للضغوط التي تحتم عليهم توفير لقيمات من الخبز لزوجاتهم وأطفالهم. وقد دفع ذلك الأرامل والنسوة اللاتي هُجِرن إلى التجمّع بالعشرات عند بيت الزعيم ويمبي. يُذكَر أنّني لم أشاهد غيلبرت منذ أيام عدّة بسبب انشغاله برعاية هؤلاء النسوة.

لا شكّ في أنّ والدي كان يفكِّر في ذلك؛ لأنّه استدار نحو والدتي، قائلاً: **العناية بعائلتي هي مسؤوليتي أنا، إذا كُتِب علينا الموت فسنموت معاً، تلك هي مبادئي، ليكن الله في عوني.**

أُصيبت شقيقتي ميليس بالملاريا بعد ذلك بأسبوع. وقد استلقت على فراش من القصب أياماً عدّة، وأصابتها حالة من التعرّق والرجفة في أثناء النوم، وكانت كثيراً ما تصحو لتتقيّأ، ولم تستطع الحفاظ على الطعام في معدتها، وأُصيب جسمها النحيل أصلاً بحالة من الهزال الشديد، شأنها في ذلك شأن بقية العائلة. كانت تبكي وتنوح في أثناء الليل من شدّة الألم في ذراعيها وساقيها. وقد لازمتها الحمّى الشديدة، لدرجة أنّ والديّ حاولا إيداعها العيادة، لكنّ الأطباء رفضوا ذلك بحُجَّة خضوع المكان للحجر الصحي من جرّاء الكوليرا.

اعتادت والدتي البقاء مستيقظة ساعات عدّة إلى جانب شقيقتي؛ وهي تُغنّي لها أغاني شعبية، وتُخفِّف عنها بقطعة قماش مبلَّلة. وكانت غرفتها مضاءة بقنديل الكاز.

كنّا نسمع الكلمات نفسها في أثناء الليل عبر الممرّ المظلم:

لا تقلقي، لا تقلقي.

لكنّ الجميع كان قلقاً.

قالت والدتي: **ادعوا لشقيقتكم، إنّها مريضة جدّاً.**

وحين تعافت ميليس أخيراً، كانت نحيفة جدّاً لدرجة أنّها بدت كشبح يمشي بيننا.

في منتصف شهر شباط تقريباً، أصبح التبغ جاهزاً للتشذيب أخيراً. لذا، كان والدي في حاجة إلى مساعدة منّي ومن جيفري. فكنّا نجمع الأوراق الصفر الزيتية على شكل حُزم، ثمّ نجلس في الظلّ، وننظم جذع كلّ ورقة بإبرة كروشيه وخيط ملولو. بعد ذلك، كانت الحزم تُعلَّق؛ لتجف تحت العرائش المصنوعة من أشجار اليوكاليبتوس وأعمدة الخيزران، وهي عملية قد تستغرق ثمانية أسابيع تبعاً للرطوبة المحيطة. كان النظم والتعليق يستغرقان ساعات عدّة، ويؤذيان ظهورنا، ولاسيّما أنّنا لم نكن نمتلك طاقة للوقوف أصلاً. وفي ظلّ حالة الهذيان التي عشناها، أصبحت صفوف التبغ الجاف تبدو مثل الطعام اللذيذ.

قلت لجيفري: **وددت لو تمكّنّا من أكل بعضها.**

قال: **نعم، لكنّنا شبعنا الآن.**

قلت: **ستجف عمّا قريب، وسيصطف التجار لكي يشتروها. عندئذٍ، سنتمكّن من وضع حدّ للمعاناة التي نعيشها.**

قال: **صدقت.**

لكنّ ذلك لم يحدث؛ فبعد أسبوع فقط من تعليق التبغ، ذهب والدي إلى المركز التجاري، وأخذ يعقد الصفقات مُعوِّلاً على المحصول حالما يجف؛ إذ لم يسعه الانتظار حتى يحين موعد المزاد. كان لا بُدّ من توفير عشاء لنا. وفي ذلك يقول والدي: **عائلتي تعلّق آمالها كلّها عليّ يا أخوتي. أودّ أن تمنحوني سعراً جيداً؛ عشرون كواتشا لكلّ كيلو ربّما.** علماً أنّ الووكمان يكلّف ثلاثين كواتشا.

هزّ التجار رؤوسهم قائلين: **تعرف أنّ الأوضاع صعبة، لن نمنحك أكثر من عشر كواتشات في هذا الوضع.**

قال والدي: **أرجوكم، أعطوني ما يكفي لشراء ووكمان، لا تجعلونني أتوسّل. صنف هذا التبغ ممتاز؛ إنّه يجف بطريقة جيدة.**

وافقــوا بعد المفاوضات على دفع خمســ عشرة كواتشا. لقــد أصبحت تلك الصفقات ظالمة ومرّة مع تفشي المجاعة.

بــدأ التجار يقولــون: **سأعطيك سطلاً مــن الذرة لقــاء تسعين كيلوجرامــاً من التبغ حالما يجهز.**

لــم يتمكّن حتى صديق والدي السيد مانغوتشي مــن مقاومة التيار الجارف في السوق، فلــم يعد لوالــدي خيار سوى القبــول. كان يعقد مزيداً مــن الصفقات أسبوعيّــاً، مُعوِّلاً على المحصــول حالمــا يصبــح معداً للقطف، محــاولاً تسويــة الأرقام في دماغــه. كان كثير من الرجال على استعداد للمحاربة من أجل للحصول على فرصة كهذه.

فــي تلــك الأثناء، كانــت سيقان الذرة في الحقــول تطاول صدر والــدي. وبدأت طلائع السنابــل في التكوّن، لتظهــر آثار الحرير المائل إلــى الحمرة على رؤوسهــا. وبدأت الأوراق الخضر الغامقة تستحيل إلى اللون الأصفر كما السيقان. وبينما كان الرجال يذبلون ويذوون في الأنحاء كلّها، كانت نباتاتنا تشب قوية يانعة في أبهى حُللها.

نظرت إلى والدي، قائلاً: **عشرون يوماً.**

قال: **أعتقد أنّك محق.**

ابتسمنــا وداعبنا الأوراق كطفل في مهده، مستمتعين بالموسيقا الهادئة التي تصدرها مع هبوب النسيم.

إذا كنــت محقّاً فعــلاً فإنّ الــذرة الخضراء تحتاج إلــى عشرين يومــاً لتصبح صالحة لــلأكل؛ أي لتصبــح شيئاً نستحب تسميتــه دوي. إنّها ما يطلق عليــه الأمريكيون اسم «**الذرة المسلوقــة**»، حيــث يكون اللبّ غضّاً حلواً، وله مــذاق رائع في الفم. حين وقفت بتلك الحقول فــي شهــر شبــاط، أحسست أنّني أحــد المستكشفين القدمــاء الذين قرأت عنهــم؛ تائه في المحيــط، وأوشك أن أموت من شدّة العطش، ويحيــط بي الماء من كلّ جانب، لكنّني لا أجد شيئاً أشربه. لقد حلمت بالدوي ليل نهار.

فـي نهايـة الشهر تقريبـاً، أعلنـت محطة راديـو وان أنّ الـدوي أصبحـت جاهزة في متشينجـي التي تقـع على بُعْد مئة وعشريـن كيلومتراً جهة الجنوب الغربـي. فبدأ مئات من الناس يتوجّهون إلى هناك، وفيهم خالي آري. لقد شاهد على الطريق رجالاً مسنّين يتوقّفون وهم يلوِّحون لأفراد عائلاتهم قائلين: **هيّا، اذهبوا إلى متشينجي**. وقد سمع لاحقاً أنّ أولئك الرجال فارقوا الحياة؛ إذ حرست عصابات مسلَّحة بالرماح والحراب الحقولَ، وهاجمت كلّ مَـنْ يقترب منها. فقد كانـت السرقة متفشية. وبينما انتظر خالي خـارج متشينجي منتظراً بعض الكيلوجرامات من الذرة، سمع جلبة كبيرة على أطراف القرية فهرع ليستوضح الأمر. كانـت مجموعة مـن الناس قد هاجمت للتو لصّاً وقتلته. وقـد شاهد خالي جثة الرجل ملقاة على العشب، بعد جَزّ رقبته حتى العظم.

بعد نحو خمسة أشهر من المعاناة، في السابع والعشرين من شهر شباط تحديداً، بثّت الإذاعـة رسالة مـن الرئيس، أخبرنا فيهـا أنّ البلاد تمرّ بموجة من الجـوع والمرض. وبعد التشاور مع المسؤولين، توصَّل أخيراً إلى أنّ الأمر يستدعي إعلان حالة «**الطوارئ**». قلت لكم إنّ رئيسنا رجل ظريف.

فـي بدايـة شهـر آذار، كانت سيقان الـذرة تصل إلـى كتفي والدي. أصبحـت الأزهار مؤشِّـراً فـي تلك المرحلة. وحالما يبـدأ الحرير (الأحمر والأصفر) يجـف ويتحوّل إلى اللون البنـي، يمكنك بدء الفحص للتيقن من مدى نضج الدوي. قرصت العرانيس بشدّة لأتحّسس حبّاتهـا. فـإذا تحطمت في أصابعي فذلـك يعني أنّ الوقت ما يزال مبكّـراً. ولكن، إذا كانت الحبّات قاسية، فتلك إشارة إلى أنّ اوقت قطافها قد حان.

تـردّدْتُ علـى حقول التبغ يوميّاً في ذلك الأسبوع برفقـة جيفري لتفحّص الدوي، وكان كلانا يستخدم رموزاً سرية؛ لكيلا تتبعانا شقيقاتي، وتكتشفان أنّها جاهزة للقطف.

قلت: **لنذهب ونحرق بعض الدبابير يا جيفري.**

قال: **الدبابير، نعم!.**

مشينا بين صفوف الذرة جيئةً وذهاباً، مشيرين إلى العرانيس التي أوشكت أن تنضج.

قلت: **انظر إلى هذه، ستصبح في فمي بعد ثلاثة أيام.**

قال: **لنحضر الحطب. أيمكننا فعل ذلك؟**

قلت: **أعتقد أنّ بإمكاننا فعل ذلك.**

وأخيراً، لمحت في أحد الأيام عرنوساً تبدو عليه علامات النضج، فضغطت على حبّاته بأصابعي، ليتبيّن لي أنّها كانت قاسية.

قلت: **إنّه ناضج.**

قال جيفري متحسِّساً عرنوساً آخر: **وهذا ناضج أيضاً.**

قلت: **هذا يعني أنّ اليوم الذي طال انتظاره قد حان.**

قال: **حقّاً! فلنتابع.**

تابعت التجوّل بين الصفوف، وقطفت الدوي الناضج وحملته بيدي بلطف. وسرعان ما أصبح لديَّ خمسة عشر عرنوساً فاضت بها ذراعي. فقمت بتقشير الطبقات الأولى من القشور وربطتها معاً لتصبح كما السلسلة، ثمّ وضعتها على كتفيّ. بعد ذلك، مررت بعريشة التبغ لأحضر حفنة من الحطب كنّا قد أعددناها لإشعال النار. لقد كان منظري أنا وجيفري ونحن نركض إلى البيت بعقود الدوي لافتاً للانتباه، وكاد أن يُفضي إلى وقوع أعمال شغب بين أصحاب الأجساد النحيلة التي أخذت تُردِّد:

– لقد نضج.

– لقد نضج.

– نضج الدوي!

أسرعت إلى المطبخ، وأشعلت ناراً في الحال. وسرعان ما امتلأ المكان بدخان أبيض أدمع عيني وأغرقهما بالدموع. لم آبه بالأمر؛ فقد كنت متحمِّساً جدّاً. وما هي إلّا لحظات حتى تجمعَّت شقيقاتي في المطبخ الضيّق، وأخذتا تتدافعان؛ لإيجاد موطئ قدم لهما، قائلات:

– دعيني أرى!

– لا، أنا أتيتُ أولاً. انتظري أنتِ.

– أنا سأقف هنا.

صرخت قائلاً: **اخرجا فكمية الدوي تكفي الجميع.**

لم أنتظر حتى تستحيل النار جمراً، فوضعت بعض العرانيس على اللهب مباشرة، وأخذت أُقلِّبها حتى أصبحت القشرة بنية ثمّ مسودة كما ينبغي. ولم أنتظر حتى ينضج الطرف الآخر لكلّ منها، فرفعت أحدها عن النار، وكان حارّاً لدرجة أنّ أصابعي احترقت. بعدئذٍ، أزلت القشور الملتهبة، وبدأت الأكل. كانت الحبات سمينة ودافئة ومليئة برحيق الجنة. مضغت ببطء وبلذة فائقة تليق بالانتظار الطويل. أحسست في كلّ مرّة أبلع فيها بعض الحبّات أنّني أسترد شيئاً فقدته، أو جزءاً مفقوداً منّي. وحين أنهيت أكل أحد الطرفين، كنت أعيد الطرف الآخر إلى النار، ثمّ أنتقل إلى الذي يليه.

دخل والداي المطبخ وشاهداني وأنا أُحضِّر الطعام الملتهب.

لا أعتقد أنّ هذه الدوي ناضجة. دعني أتذوّق، قالها والدي، ثمّ تناول إحداها بسرعة. وبعد أن أزال الحرير عنها، قضم الدوي باستمتاع كما فعلت أنا. بدا أنّ الحياة دبَّت في مُحَيّاه خلال ثوانٍ فقط. لقد عرف حينها أنّه سيبقى حيّاً يُرزَق.

قال: **إنّها ناضجة.**

أكلت أنا وجيفري نحو ثلاثين قطعة في ظهيرة ذلك اليوم.

كانت طلائع اليقطين ناضجة في حقولنا أيضاً؛ كأنّ النعيم هبط علينا فجأة. كنت قد راقبتها من كثب على مدار أسابيع، في انتظار أن تنمو وتأخذ الشكل واللون المناسبين. والآن، وبعد طول انتظار، فقد أصبحت كبيرة كرأس رجل، وبرتقالية كشمس الصباح. فقمنا بسطحها وغليها في قدر بأجزائها جميعاً؛ البذور، والقشرة، وكلّ شيء. أيضاً، جمعت والدتي كومة من اللبّ الدافئ الغضّ، ثمّ وضعتها في إحدى السلال، فالتهمناها حالاً. يا إلهي، كم من متع ومسرّات في هذه الحياة؛ أفضلها – دون ريب– ملء المعدة بالطعام الساخن!

obeikandi.com

حتـى إنّ جيفري قَدِمَ لتناول الدوي واليقطين بمعيّتنـا، وسرعان ما زال الانتفاخ من ساقيه، واستعاد صحته وعافيته كما في الأيام الخوالي.

كان شهـر آذار يمثِّـل احتفاليـة بالنسبة إليّ وإلـى جيفري. فقبل التوجّـه إلى الحقول صباحاً، كنّا نقطف حفنة دوي، ثمّ نُشعِل ناراً تحت عريشة التبغ لنتناول فطوراً شهيّاً، يتخلّله بعض المداعبات، مثل:

– هذه لي، وتلك لك يا سيد جيفري.

– حسناً، أعطني حصتي.

تذكَّرت مثلاً كان المسيح ي ضربه لأتباعه عن زرع البذور؛ فالبذور المنثورة في الطريق تتعرّض للتلف، وتلـك المنثورة في أرض صخرية لا تنبِت الجذور وتموت، وتلك المنثورة بين الأشواك تتعرّض للاختناق. أمّا البذور التي تُنثَر في أرض خصبة فتعيش وتنمو.

– إنّنا مثل البذور المزروعة في أرض خصبة يا سيد جيفري، ولسنا على قارعة الطريق يدوسنا المشاة.

– فعلاً، فنحن ما زلنا أحياء.

– هذا صحيح يا سيد جيفري. لقد بقينا على قيد الحياة».

كانـت سـلال الدوي واليقطيـن الساخن تشبه جيشاً جـرّاراً قَـدِمَ لنجدتنا من هزيمة محقَّقـة. وبدأ الناس في المركز التجاري يبتسمون ويتحدثون عن المستقبل. لن تعود الحياة كمـا كانت إلّا بعـد الحصاد. أمّا في البيـت، فكانت كتلة السيما تقدَّم علـى العشاء كلّ ليلة. ولكن، حتى تلك فقد كانت – في الأقل – مقدِّمة لأمور جيدة.

بـدأت أسير مسافات طويلة لتفقّد الأوضـاع في مالاوي، ولأشاهد مَنْ تمكَّن من النجاة وكيفيـة تكيّفهم مـع الوضع. ولما أصبحت الـدوي جاهزة في الحقول الآن، فقـد بدأ الناس يجفِّفونهـا فـي باحاتهم ويحضِّرون التشيتيبو الذي يُعَدّ نوعاً مـن السيما، ولكن أكثر حلاوة. بـدأ الناس يستعيـدون قوتهم، وبـدأت أشاهد وجوهـاً مبتسمة تحيّيني على طـول الطريق.

أصبـح النـاس الذين أصابهم الوهـن في الأمس، وكانوا يذرعـون الطرقات بضعف، يعودون إلـى منازلهم حاملين أطفالهم على ظهورهم، وحزمـاً كبيرة على رؤوسهم. ولكن، لما كانت أجواء المجاعة كانت لا تزال حاضرة، فقد توقّعت أن أسمع منهم السؤال نفسه الذي سمعته مـن الغرباء طوال أشهر: **غانيـو**؟ أنا أبحث عن **غانيو**... لكنّني وجدت عوضاً عن ذلك تحية التفاؤل والمحبة المعتادة.

– مولي بوانجي؟» كيف حالك؟

– نديري بوينو، كايا إينو؟: بخير، وأنتَ، كيف حالك؟

– نديري بوينو: بخير.

– زيكومو: شكراً على السؤال.

– زيكومو: بل شكراً لك.

أصبـح النـاس الآن يمشون في المركز التجـاري وهم يصافحون جيرانهم كأنّهم عادوا من رحلة طويلة شاقّة.

كانوا يقولون:

– لقد سعدت برؤيتك يا صديقي. أرى أنّك ما تزال حيّاً»

– أنا موجود. كيف تدبّرت أمرك؟.

– كان الله في عوننا.

أتاحـت لنـا بركات الدوي العـودة إلى رتابة الحيـاة الطبيعية، لكنّهـا جلبت اللصوص أيضـاً؛ إذ كان كثير من المُزارِعين القادمين إلى ويمبـي من مناطق أخرى لا يستفيدون من الـدوي واليقطين لعدم امتلاكهم حقولاً مخصوصة بهـم، فقاموا بأخذها من غيرهم. وكان الأشخاص الذيـن يعيشون فـي أجمة اليوكاليبتوس المخصوصة بعائلـة غيلبرت ينتظرون حتـى نزول المطر في أثناء الليل؛ ليسرقوا الـدوي الناضجة. وقد أدى تكرار ذلك على مدار

أسبوعيـن، إلى نفاد الثمار كلّهـا من معظم الحقول. حدث الشيء نفســه معنا أيضاً؛ إذ كنّا نمشــي كلّ صبـاح على الطريق المحـاذي لحقولنا، فنجد على الأرض أوراقـاً خضراء ودوياً مقضومة حتى النواة؛ كأنّ كتيبة كانت تأكل من هناك طوال الليل.

وسرعان ما انتشرت في المركز التجاري قصص مروّعة عن الانتقام. ففي أحد الأيام، سمعت الصبية يتحدثون عن تلك الجرائم.

قـال أحدهم: **سمعـت أنّ بعض المُزارِعين في كينجـي أمسكوا رجالاً فـي حقولهم. أتعـرف لمـاذا؟ لقد استلوا حرابهم، وهمّـوا بقطع أذرعهم سائلين: هـل تريدون أن أقطع من فوق المعصم أم من فوق المرفق؟**

كانوا يستغيثون: **لا!.**

قال غيلبرت: **أمسك ابن عمي صبيّاً يسرق الدوي خاصته، فوضع سيخاً حديديّاً في النار حتى احمرّ، ثم أمر الفتى أن يمسكه، وهو ما حدث فعلاً.**

لقد جعلني ذلك الحديث كلّه عن الانتقام، أتساءل عمّا سنفعل بشأن حقولنا. وفي وقت لاحـق من الليل، سألت والدي عن العقاب الذي سنوقعه على مَنْ يسرقون غلالنا، قائلاً: **هل نقتلهم أم يجدر بنا الاتصال بالشرطة؟**

هــزّ والدي رأسه، قائلاً: **لن نقتل أحـداً يابنيّ. وحتى إذا اتصلنـا بالشرطة فسيموت أولئـك الرجـال جوعاً في السجن. مُصاب الناس واحد يـا بنيّ؛ إنّه الجوع. علينا أن نتعلّم الصفح.**